شفاء النفس بالنفس

د. يوسف الحميدان

صدقني أيها القارىء الكريم عندما أقول كلمة ··· كلمة معبرة ومؤثرة ··· ذات معنى ومغزى ·

لقد صدرت هذه الكلمة من انسان شريف في العصر الجديد ·· فكانت صورة (طبق الأصل) للانسان الشريف في العصور القديمة ·

ولقد أرشدني ذلك المصدر الشريف الى فكرة اجتماعية ··· ونظرية شبه علمية بدأت من نفس الى نفس ··· ثم تحولت الى فكرة (علمية اجتماعية) ·· كان يتحكم بها التاريخ القديم أيما تحكم ·· ربما لأنها كانت مربوطة بوثاق متين الى رجالات العلم المستشرقين ·· وربما لأن العقل البشري قد تحرر من القيود القاسية فاصبح قادرا على القول والتعبير ·

قرأت فيما قرأت من روايات ·· رواية موجزة ذات مغزى ·· مغزى عصريا حديث الشأن ·· كان عونا لي على تتبع (حقائق خالدة) ·· وكان صاحبها (مؤسس هذه الجزيرة العصرية) ·· عبد العزيز آل سعود رحمه الله ·

١ ـ أصابته رصاصة في جسمه وهو يخوض معركة ·

٢ ـ جاءه الطبيب مسرعا بأدوات العلاج والشفاء ·· زجاجة من مخدرات الطب ·· ومشرط جراحي حاد ·

٣ ـ سأله عبد العزيز رحمه الله ·· (وماذا بيمينك يا طبيب ؟!) ·

٤ ـ قال هي الات العلاج والشفاء انشاء الله ·

٥ ـ فضحك عبد العزيز وهو يقول (أبعد الأولى) وهات الثانية ·

٦ ـ فسلمه المشرط الجراحي الحاد وهو مذهول !! ·

٧ ـ الجلد أمامه يتقطع ٠٠٠ والدماء أمامه تنزف ٠٠ والرصاصة بثقة عالية تستخرج ٠٠ وكأن الأمور طبيعية لا تعني الطب والأطباء لا من بعيد ولا من قريب ٠٠ بلا تحضير ولا استعداد ٠٠ بلا همسات ولا تشنجات ٠٠٠ وبلا ألم ولا آهات ٠٠٠ اللهم الا من الطبيب المذهول ٠

يا لله !! ٠٠ كيف يتم هذا المنظر ولا جرأة على الاعتراض ؟! ٠٠٠ أنها عزائم الرجال يا من يسأل عن الرجال ٠٠ أنها جهل الأطباء والعلماء بكل عادات الأجداد وأخلاق الأقدمين ٠٠ ترى ما هي العزيمة ؟! أهي الصبر على المكاره والآلام ٠٠ أم أنها سر من أسرار العلم القديم والحديث ؟! ٠

أنا لا أعرف ما هي العزيمة ٠٠ ولكنني أعرف آثارها ٠٠٠ تقول عنها مصادر اللغة العربية (أنها الصبر) في لغة هذيل ٠٠٠ ويقول عنها القرآن الكريم (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ٠٠ فاذا ماحاولنا تبديل هذه التعبيرات اللغوية الواسعة ٠٠ الى تعبيرات (علمية حديثة) ٠ اترانا ننجح في مهمتنا ؟! ٠٠ أجل سننجح ولكن بعد أن نعرف شيئا من أمور التشريح (وفسيولوجية) الأعضاء ٠

أولها : مايفرز من (الغدد الصماء) الحية من مواد منشطة وتفاعلات كيماوية ٠٠ يتبعها بعدئذ (أثر فعال) على تكوين أنسجة الجسم وخلاياه الحية ٠

ثانيها : (رود الفعل) المتعددة لتلك الأنسجة والخلايا ٠٠٠ تراها كيف تكون ؟! ٠٠ كيف تكون في حالات (هدوء النفس) وكيف تكون في حالات كربها ؟! ٠

ثالثها : وأن أنواع (السلوك) الفردية الظاهرة ٠٠ فلقد عرفنا أنها كثيرا ما تطغى على تصرفات الانسان الخارجية ٠٠٠ وتظهر على عدة اشكال وصور ٠٠٠ تبعا (للتكوين النفسي) الداخلي ٠٠٠ ومدى استعداد تلك النفس للرفض أو القبول ٠

اذن فلماذا يتجنى على أبناء الصحراء من كانت بأيديهم أزمة العلم ونواصي التاريخ ؟! ٠٠ أليس من حقنا (مثلهم) أن نحلل أوضاع المجتمعات القديمة تحليلا يتفق ومنطق العصر الجديد ؟! ٠٠ أليس من حقنا أن ننشد الحق والعدل وعدم تشويه الحقائق ؟! ٠٠ فالخطأ في عرف الجميع ما هو

الا خطأ عابر ٠٠٠ أما في عرف العالم والباحث فهو خطأ يحتاج الى تعديل أو تصحيح ٠٠٠ واذا كنا على (مر السنين والأيام) قد توارثنا تلك الأخطاء (بقلب سليم) أفلا يعني هذا أننا لازلنا (نسير مع الغفلة) الى آخر الزمان ؟! ٠ ولقد كان ابن الصحراء ينظر الى كل أمور الحياة (نظرة واقعية طبيعية مستمدة من الحرية الفطرية ٠٠٠ لا تكلف فيها ولا اصطناع ٠٠٠ وكان يمارسها طائعا بلا ضغط ولا اكراه ٠٠ وأكثر من هذا ٠٠٠ كان تكوينه النفساني والجسماني يتعامل مع (المحيط) وفطرة البيئة الموروثة (معاملة واقعية بحتة) ٠٠ لا تحريف فيها ولا نفاق ٠٠ أفليس عجيبا اذا ما وجدناه يحتقر الدنايا والصغائر ؟! واذا كان هذا هو العجيب (في عرفنا) ٠٠ أفليس عجيبا أن نراه يضع (الآفات والآلام) موضع السفاسف ومحتقرات الأمور ؟! ٠٠ أجل ٠٠ ولقد كانت تلك جبلتهم ٠٠ وكانت تلك وراثتهم ٠٠ وكانت تلك صبغتهم ٠٠ فهل لنا القدرة على التعديل أو التحريف ؟! ٠٠ واذا كنا عن هذا عاجزين ٠٠ فهل يقدر العلم على استبدال الصياغة من جديد ؟! ٠

لقد علمنا من كل ما فات ٠٠ وعلم غيرنا على اليقين ٠٠ بأن حياة شبه الجزيرة العربية ما هي الا حضارات متتابعة وتاريخ مجيد قائم بذاته ٠٠ له مميزاته الحيوية من فنون الأدب الواقعي المتشعب ٠٠ وله مميزاته الحيوية من فنون العقل والفكر والادراك والتمييز ٠٠ الذي أصبح يقينا لدينا ٠٠ أن عصر التقليد (غير المميز) ما هو الا من صفات الشعوب التي تفتقر الى الحضارات والأمجاد ٠٠ فماذا دهانا ونحن نجاريهم ونسلك معهم مثل هذا السلوك ؟! ٠٠ ان سلالات العصر الحاضر (أمر غير مشكوك فيه) ٠٠ وهو من المؤكد امتداد حي وحيوي لتلك الأمجاد والحضارات ٠٠ اذن فلماذا نتخذ من صور (الغارفين خطفا) مواقف الانزواء والانطواء ؟! ٠

١ ـ فماذا أخذه الباحثون والمنقبون عنا من هوامش خاطفة ٠٠٠ قد تحولت (بمرور الوقت) الى عوائق وقيود ٠

٢ ـ وما أخذناه (نحن) من تلك الهوامش المخطوفة ٠٠ اعتبرناها (بمرور الوقت) ثروة ضخمة لا تحتاج الى نقد أو تحليل ٠

٣ ـ أدى بنا الحال بعد ذلك ٠٠ الى اختفاء الناقد الوطني أو ندرته ٠٠٠ وهذا هو العجز بعينه ٠

فلقد تبين من أبحاث العصر الحديث ٠٠٠ وتبين جديا بأن الآفات والأمراض في المجتمعات البشرية ٠٠٠ ليست علامة من علامات الحضارة

والمدنية حتى تستحق المقارنة والمعاناة ٠٠ وتبين أيضا ٠٠٠ بأن كل الابتكارات المضادة (من عقاقير وعلاج ووسائل شفاء) ليست هي الأخرى مقاييس أو معايير للتقدم والتطور البشري ٠٠ اذن فعلام تلك التهم والتجريحات ؟! ٠

يقول الأستاذ (رينولد نيكلسون) عن أحوال العرب في شبه جزيرتهم (فاذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعي لهم ٠٠٠ وجدنا ذلك أقرب الى المستحيل ٠٠٠ فليس لدينا من المصادر سوى القصائد والروايات والأساطير ٠٠٠ وكانت محفوظة في الصدور) ٠

ولولا خلال سنها الشعر ما درى

بغاة الغلا من أين كيف تؤتى المكارم

أفبعد هذا نتعالى على القديم ونمجد الجديد ؟! ٠٠٠ ان (آلام الحس) في عصرنا الجديد ٠٠٠ قد أصبحت هي الداء العياء لأجسام الأمم والشعوب ٠٠٠ وكان (قهر الرجال) في الماضي هو (آفة الآفات) للعقول والنفوس والأجسام ٠٠٠ ترى هل من مقارنة عادلة نقولها ؟! ٠

بنا يستعطف الأمر المولى

ويحسم داء ذي الداء العضال

ونخطم انف كل جعا ضري

شموخ الأنف ينظر من معالي

أجل لقد جعلوا من أنفسهم شفاء للنفوس العليلة ٠٠٠ وجعلوا منها عزائم للنفوس القوية والأبدان الهزيلة ٠٠٠ لا يسألون هذا ٠٠٠ ولا يتكلمون على ذاك ٠٠٠ وما شخصية عبد العزيز آل سعود رحمه الله ٠٠٠ الا امتداد لتلك الشخصية العربية المميزة ٠

تحسر الديباج عن أذرعهم عند ذي تاج اذا قال فعل
في قروم سادة من قومه نظر الدهر اليهم فابتهل

د٠ يوسف الحميدان
وزارة الصحة